

الرواية الجزائرية وإعادة كتابة / قراءة التاريخ المرويات الغربية الكبرى والسرد المضاد (مقاربة في نماذج نصية)

The Algerian Novel and the Re-reading of History Greater Narratives and counter Narratives

د. عبدالله بن صافية

جامعة محمد البشير الإبراهيمي — برج بوعريج (الجزائر)

abdoubensefia@gmail.com

تاريخ القبول: 2022/09/30

تاريخ الإرسال: 2022/09/24

ملخص:

يسعى هذا المنجز إلى استكناه طبيعة المقاومة السردية في الروايات الجزائرية المخيّلة للتاريخ حين قامت بإعادة صياغة الوقائع مرة أخرى، وحاولت تقديمها لقارئها مفرغة من المثقلات الفكرية الغربية، قصد إزالة اللبس عن المسعى الإيهامي الذي تستتر خلفه إيديولوجيا المستعمر وأهدافه الخفية، انتصارا لثوابت الهوية الجزائرية. وستتم المقاربة بتقديم مطارحات مترتبة تؤسس لها الأسئلة الآتية:

- كيف تمثلت الرواية الجزائرية المخيّلة للتاريخ الخطابات الكولونيالية؟
- ماهي الآليات التي استخدمتها في عملية التقويض؟
- إلى أي مدى نجحت في عملية التفكيك / الهدم (بالنظر إلى الأسس التي انبنى عليها خطابها السردى المضاد)؟

الكلمات المفتاحية: الرواية الجزائرية، التاريخ، المرويات الكبرى، السرد، السرد المضاد.

Abstract:

This paper seeks to shed light on the nature of narrative resistance in the Algerian stories of historical fiction where it showed the events and attempted to present them for reader empty of any occidental odd thoughts for the purpose to remove ambiguity from the inspirational endeavour which is protected under the colonial ideology and its

secret objectives and for the nation's identity. The approach ends with different arguments based on the following questions:

- How was the Algerian historical fiction story shown in the colonial speeches ?
- What mechanisms are used in the process of undercutting ?
- To what extent was it successful in the system of dismantling / destruction (regarding its foundations upon which its opposite narrative speeches were built) ?

keywords: the Algerian novel , history, The great stories, narration, counter- narration.

• فرش:

لقد أذكت الرواية المخيلة للتاريخ النقد بترسانته النظرية والتطبيقية وأوقدت مفاهيمه لإعادة ضبط وظيفة السرد مرة أخرى، مسلحة إياه بنظرات جديدة تحاول أن ترحزحه للاشتغال على المركزية وما تستقطبه من مفاهيم تاريخية؛ وذلك على اعتبار أن النصّ الروائي قد أصبح إلى جانب فنيته أداة لإنتاج الوعي والمعرفة بالذات، والإحاطة بالماضي باعتباره جزءا مشكّلا للهوية، في مقابل ما أنتجته الثقافة الأوروبية وبثته من خطابات صارت عبارة عن مركزيات تعلي من شأنها وتهمش الآخر باعتباره تابعا لها لا أكثر، وعليه استوجبت هذه الروايات "التحرر من الفكرة الشائعة التي ثبتها الخطاب الاستعماري في الأدب والثقافة بشكل عام، وهي أن كلّ الآداب الجديدة، والأفكار الحديثة إنما هي غريبة المنشأ"⁽¹⁾ وتحديدًا أوروبية المصدر، وذلك تأسيسا على "فكرة الهوية الأوروبية باعتبارها هوية تتفوق على جميع الشعوب والثقافات غير الأوروبية. هذا إلى جانب هيمنة الأفكار الأوروبية على الشرق، وهي التي تكرر القول بالتفوق الأوروبي على التخلف الشرقي"⁽²⁾.

إنّ تحيزات الخطاب الاستعماري، "أنشأت صورة مركبة للشرق، وأصبحت ملائمة للدراسة في المعاهد العليا، وللعرض في المتاحف، ولإعادة الصوغ في وزارة المستعمرات، وللاستشهاد بها نظريا في الأطروحات الخاصة بعلم الإنسان/ الأنثروبولوجيا وعلم الأحياء/ البيولوجيا وعلم اللغة، ودراسات الأعراق والدراسات التاريخية عن الجنس البشري والكون ... هي صورة مركزية للشرق لم يطعن فيها أحد، وكان ذلك أولا وفق أفكار عامة تحدّد من

هو الشرقي أو ما هو الشرقي، وبعد ذلك وفق منطق تفصيلي لا يخضع فحسب لحقائق الواقع الفعلي بل تمليه شتى الرغبات والأطماع وضروب القمع والاستثمار⁽³⁾ وهذا يعني أن تدخل الغربي/ الأوروبي في صوغ التصورات وإنشاء المفاهيم، جعل التسليم بمركزية الغربي ضرورة لدى الشرقي والغربي على حدّ سواء، وهو ما سهّل الفعل الاستعماري وسهل عليه بعدها تحويل الأمم الأخرى إلى شيء، إلى شعوب يستعبدوها ويهيمن عليها، ومواد أولية ينهبها، وهو في العموم ما يوضّح التلازم القائم والدائم بين هذا النوع من الخطاب الاستعماري المنتج وبين تطبيقاته المباشرة وغير المباشرة.

أوّلا/ الرواية الجزائرية المخيلة للتاريخ وتمظهرات خطاب الآخر:

أصبحت الرواية بما هي المحضن الفني الأوّل لعالم الأفكار، والنصّ العابر للحدود القومية المستوعب لعدد كبير من أشكال الحياة، فضاءً مقاوما برمزياته لهذه المركزيات الغربية وما تنتجه من مقولات استعمارية تحاول السيطرة على الرّاهن على اعتبار أن الغرب هم "أرباب الخلق وسادة العالم وأن الهدى هداهم ... ولا يعقل تأسيسا على ذلك أن يشتغلوا بباطل أو يجهدوا أنفسهم على غير طائل ... وقد أوكلوا إلى أنفسهم مهمة تهذيب بقية أهل العالم المقيمين على الجهالة حتى اليوم وهو ما يلزم الانتفاع بخيراتهم وطيبات أراضيهم"⁽⁴⁾، وهي المقولات ذاتها التي تعطيها شرعية الملكية وتؤسّس للمفهوم الاستعماري الذاهب إلى زعم إفادة الآخرين وحسن الاستغلال، يكتب "عرعار" بهذا الصدد، متوسلا لسان ضابط فرنسي حين عقّب على خبر استقلال الجزائر "لم تبق لفرنسا عظمة منذ الآن ... إنّ العمل الذي قامت به اتجاه الجزائر، ليعدّ صبغة عار في جبينها ... وسيعاتبنا عليه أبنائنا العتاب الشديد. فماذا يا ترى ستفعل الجيوش؟ ... وأين تذهب خيراتنا الموجودة في الجزائر؟ لقد تنازلنا على كلّ شيء دون مقابل، وهذه عملية تجارية خاسرة"⁽⁵⁾، وبالتالي تؤدي هذه الإنتاجية الفكرية الاستعمارية [التي تشرّحها نص عرعار وغيره من النصوص] إلى تشويه التاريخ وتحريفه بإنتاج ما ينفع المستعمر، ويغطّي عثراته التاريخية، وفي الوقت نفسه طمس معالم الحقيقة المفيدة للمستعمر نظرا إلى ما يؤدّيه التاريخ من دور في لمّ الشمل وتوحيد العناصر المتنافرة، وبثّ الإحساس بالكيان الواحد وبالاستمرارية الجمعية، وهذا

الهدف الاستعماري هو ما يقود الاستعمار إلى فصل الأجيال الأخيرة عن تاريخها، وقد "وفق في هذا الأمر لدرجة أنّ العصريين في هذا المجتمع لم تعد لهم أية صلة بماضيهم، ولم يعودوا يعرفونه، ولا يفهمون منه إلا قدما قديما منحطا وغامضا (لا شيء يذكر فيه إلا ويعدّ نبشا للقبور وغيبة للموتى وتناولا لكلّ ما هو نخر وخرابي ومعدوم بل ويسمى الميل إليه بالرجعية أي الاهتمام بالماضي دون المستقبل)"⁽⁶⁾ وكان منهم أن تخلّوا عن كلّ ما يذكرهم بأصولهم بعدما كان آباؤهم أشدّ حرصا على التمسك بها ونقلها إلى أبنائهم مثلما تناقلوها هم عن الأجداد ولهذا نلمس الشرح الواضح بين الأجيال، وارتقاء المتأخرين في أحضان الآخر وهو ما عبّرت عنه الروايات في أكثر من سياق، يقول عبد القادر المولع بأوروبا في رواية "الغيث": "قرىبا ستأتي الباخرة وأهجر هذا القفار القاحل. أترككم، أنتم، مدينتكم دينكم، جفافكم ... تاكلوا تخاصموا، تذابحوا، تناكحوا وتكاثروا لمزيد من البؤس والتناحر ... لم يعد يهمني ما يحدث هنا وما سيحدث مستقبلا ... في رأسي، لست حاضرا معكم، إنّي هجرت هذا الخلاء منذ أمد بعيد .."⁽⁷⁾.

لقد حاولت الروايات بإنتاجها لخطاب ثقافي ما بعد كولونيالي إعادة صياغة التاريخ مرة أخرى لتحليله من مثقلاته الغربية، وإزالة اللبس عن المسعى الإيهامي الذي تستر خلفه إيديولوجيا المستعمر وأهدافه الخفية، انتصارا لثوابت الهوية الجزائرية/العربية/الإسلامية وذلك بمساءلة التمثيلات التي تقدّم نفسها على أنّها الحقيقة، فتمتحن سلطتها، وتُخضع أمداء تماسكها لأسئلة المكاشفة النصية، وبالمقابل، تنبش إلى جانب ذلك المرجعيات والإرث التاريخي والثقافي المقاوم للاستعمار وإنتاجاته الفكرية التي سعت "إلى رسم صورة مشوّهة للشرق، كما قدمها فعلا الكثير من الآراء الاستشراقية العنصرية كتلك التي لإدوارد لين ورينان وغوبينو وبلفور وكرومر، وغيرهم ليكون الشرق الخاص المختلق أو الملقق أو المصنوع أو على الأقل، المشوّه"⁽⁸⁾، وهي الصورة المشوّهة التي تبناها الغرب بعد ذلك وروجها لاستغلالها في تحقيق أطماعه الاستعمارية المتجدّدة، فعبرت عنها الرواية وسقّتها في الوقت نفسه، ومن ضمن الإشارات النصية الدالة على هذا التقزيم ما نجده في رواية حومة الطليان لـ "أحمد حمدي" حين عبّرت عن دونية ما يتناقله العرب من أخبار وعن سوء

ما يقومون به من منجز، يقول: "عمد غلاة الكولون إلى شنّ حرب خفية على مصادر الأخبار العربية وذلك بزرع بذور الشك فيها، وفي مصادرها، وروجوا بعدم مصداقيتها ... بل وصاروا يطلقون على كلّ ذلك، وبمزيد من التهكم والسخرية اسم (Radio Arabe) والهدف من وراء ذلك هو تدمير وتسخيف كلّ الأخبار غير المسيطر عليها من قبلهم مثلما يطلقون على العمل الرديء العبارة المذمومة (Travail Arabe) التي كانت تعني في زمن مضى الجيد من الأعمال"⁽⁹⁾، وتجدد الإشارة إلى أنّ عملية الترويج لهذه الصورة لا زال أثرها مستمرا حتى اليوم لكن بوجه مغاير اتسمت ملامحه بسمات جديدة انتفى معها الجانب العسكري لتصدره وجوه أخرى سياسية واقتصادية وثقافية.

أراد الرّوائي الجزائري العودة إلى التاريخ بطاقة ثورية وبأعين ناقدة لمقاومة أشكال الهيمنة الغربية على هذا التاريخ، طارحا مجموعة من القضايا المقابلة التي لطالما كانت محلّ شبهة، كشفا للحجب الإجرامية - خاصة منها الفرنسية - وتقديمها للبدائل المعرفية التي كان يجب أن يحتفي بها التاريخ، ومن هنا برزت الحاجة الملحة لسردٍ مضاد يسعى إلى تسليط الضوء على التّعالي الغربي القائم على مقولة الأصلاحي ومقولة السيد والمنزّه وتغيير مرجعياته في المخيال الشعبي الأوروبي، كما يسعى بالمقابل إلى توجيه الذهنيات المستعمرة نحو الانعتاق والتحرّر من المقولات الغربية المهمشة له، على اعتبار أنّ الاحتلال الفرنسي للجزائر كان بالدرجة الأولى مشروعا للحدّثة الفرنسية، ولأجل ذلك استخدم المستعمر شتيّ السبل لاستعباد الجزائريين والقضاء على الرافضين منهم لسياسته وتوجهه، وفي هذا المساق يروي بوزقزة في رواية "كولونيل الزيرير" قصة جندي فرنسي سلّم نفسه للمجاهدين عارضا خدماته على "أصحاب الحق"⁽¹⁰⁾، مقدّما صورة المناضلين بأعين فرنسية: "قادتنا ... هم الذين أدخلوا في أذهاننا أنّكم مظهر من مظاهر البؤس والموت، لذا وجب أن نبیدكم"⁽¹¹⁾ ليضيف بعدها ردّا على هذا الحكم، ملصقا عبره التهمة بالفرنسيين ذاتهم: "عجيب أن ندين ما ارتكبه النازيون في حقنا ونأتيّ أفعالهم ذاتها مع غيرنا"⁽¹²⁾، وفي هذا الإطار أيضا وبذات الدلالة، يقدم "محمد العالي عرعار" بلسان فرانسواز الفرنسية مقطوعة سردية يبرز من خلالها مدى التشويه الذي ألحقته فرنسا بالجزائريين، حين تقول مخاطبة البشير بعد أن

توطّدت العلاقة بينهما: "يجب أن أقول لك يا البشير، أيّ في الأول لم أكن أصدق، ولم أكن أعرف، أنّ الجزائريين هم على هذه الدرجة من النبل والشهامة التي أظهرتها أنت لي ... لقد كنت أعتقد حسب ما سمعت وحسب ما قرأت أنكم أنتم معشر الجزائريين عبارة عن أناس سفاكين للدماء، متوحشين، لا تملكون ذرة من الحب والود، لقد كانت جميع تلك الأوصاف، مخطئة ومغرضة، وأنا أعرف الآن مصدرها وهدفها، وسأكون ضدها دائما"⁽¹³⁾، والقصد من وراء لفظ (الهدف) هو حصول الجيش الفرنسي على دعم شعبي وضمّان داخلي لعدم معارضة ما يقوم به من عمليات تهديم ونهب وجرائم حرب داخل الجزائر، على اعتبار أنّ سكّانها هم مخلوقات لا تستحقّ الحياة أساسا.

إنّ اجتياز مرحلة الاحتلال نحو الاستقلال جعل الرّوائي الجزائري يستكشف مرحلة جديدة يحاول أن يكتب فيها وقائع أخرى غير التي كتبت، وبهذا فقط يمكن الحكم على الخطاب الرّوائي ما بعد الكولونيالي أنّه قد غدا استراتيجية "أساسية بالنسبة للذات في التّمثيل وصياغة هويتها عن طريق تأكيد اختلافها مع صور الآخر، اختلافاً يأخذ أنماطاً متعدّدة من العلاقات شكل دياكتيك السيد والعبد، وهندسة المركز والهامش في الحكاية الكولونيالية، وشكل السلطة والتابع في حكاية السلطة وشكل الألفة (الأنا/المحلي) والغريبة (الآخر/الأجنبي) في الحكاية الحضارية"⁽¹⁴⁾.

إنّ إعادة إنتاج الرواية الجزائرية للخطاب التاريخي -بإستخدامها سردا مضادا- هو في الأصل سعي إلى إنتاج خطاب جمعي جديد يعبر عن موقع الجزائر كضحية لاعتداءات عسكرية وأخرى ثقافية، شأنها في ذلك شأن سائر الدول المتخلفة عن الركب المدني الغربي وهدفها من ذلك هو صناعة مرويّات كبرى⁽¹⁵⁾ مضادة تسعى إلى تغيير صورة العربي والمسلم والأمازيغي والمجاهد والملك والسّلطان والصادق والوفي والمخلص وغيرها من الصور التي تسعى إلى تأصيلها ثقافيا، في مقابل الصور التي سوّقتها الثقافة الغربية بشاكلة معكوسة وبتخييلات كاذبة فتمثّلتهم بصيغة: المحرم والقاتل والإرهابي والعربيد والمنافق والكاذب ... بتوسل خطاب استشراقي وسينمائي وأدبي أغشى أبصار عامة الغربيين عن حقيقة العربي المسلم التي زيّفت، وجعلت منهم "بجرد مخلوقات على غطاء نبائي يمكن إزالتها ببرودة ضمير"⁽¹⁶⁾.

لقد اختارت الروايات لصدّ هذه التهم موقفا دفاعيا يسعى إلى تبيان وعيها بالمسوّق قبل أن تقوم ببثّ المبادئ والقيم الصّحيحة التي يقوم عليها المجتمع الجزائري كمرحلة ثانية، يقول السارد في رواية "الأعرج" على فم امرأة جاءت تترجّى الأمير ليطلق سراح زوجها الأسير، وهو ما نفّذه لها الأمير بحسب النّص بعد وساطة من القسّ ديبوش: "وصلها أنّ العرب عندما يلقون القبض على ضحيّتهم لا يفكّرون في حلّ آخر إلّا قطع الرؤوس وبعثها إلى الخليفة ليأخذوا مقابلها قطعاً ذهبية، وأحيانا يكتفون بقطع الآذان بدل الرؤوس للتخفيف من مهمة الإرسالية عندما يكون عدد المقتولين كبيراً. وقد وصلها أنّ بعضهم كان، في الكثير من الأوقات، لا يتوانى عن قتل ذويه من البيض، ممن تشبه آذانهم آذان الروميين في صغر حجمها وبملاً زوادته، ويذهب بها نحو الخليفة قائلاً إنّّه قتلهم في مكان ما من الأمكنة ليأخذ حقوق صيده كاملة"⁽¹⁷⁾، إنّها صورة لتركيب ملقّق يعيدنا إلى سرود ألف ليلة وليلة الخرافية أو إلى الشاذ التاريخي الذي يركّز عليه الغرب في عملية تشويههم للصورة الشرقية عموماً بالوسائل المتاحة لديه أدبياً أو إعلامياً، وهدفهم من وراء ذلك هو اكتساب شرعية المركز الذي يمكنه من خلاله محقّ الهامش واستعباده، وأخذ دور السيّد الذي يمكنه أن يصرف عبيده على النحو الذي يريده، فهو وحده من يستحق الحياة أمّا من هم دونهم فهم "مظهر من البؤس والموت"⁽¹⁸⁾ "إنّهم دون البشر، أقرب إلى الحيوانات"⁽¹⁹⁾ مثلاً ذهب إلى ذلك "الحبيب السائح".

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أنّ هناك بعض المنتسبين جغرافياً إلى الجزائر وطناً أو إلى الأمة العربية والإسلامية من يؤمن بهذه المقولات الاستعمارية المزيّفة الصادرة في الأصل عن "رؤية سياسية للواقع"⁽²⁰⁾، والسبب الرئيس في ذلك يعود إلى عدم تمكينها من خطاب تستطيع من خلاله تمثيل نفسها والصدق بأنّها في وجه الآخر، بل وأبعد من ذلك أنّها تعتقد في كثير من المواضع والمواقف بأنّ الغرب هو المنقذ من الواقع الموبوء الذي هي فيه على حدّ تعبير الطاهر وطار. ولأجل ذلك، أشار الروائيون الجزائريون في كثير من المواضع إلى هذا الاستلاب الذي تعيشه فئات مخصوصة من المجتمع وتوارى خلفه حين قياسها لعجزها بالنّجاح الغربي المعماري والتكنولوجي والصناعي. يورد محمد ساري في "الغيث"

مقطوعة تبدي هذا الفكر المستلب، الممّجد للآخر والمقزّم للذات، فيقول على لسان إحدى الشخصيات (عبد القادر) التي لها ما يعضد وجودها في الواقع: "... مدننا وطرقنا من شيدّها؟ هل بنيناها نحن؟ الله يكثر من خير فرنسا اللي بنات وعلات. لولاها لما زلنا نسكن في الخيم وقرابي القصب والديس" (21).

ثانيا/ السرد المضاد وإعادة إنتاج الوقائع:

إنّ الرواية الجزائرية في مرحلتها ما بعد الكولونيالية بالنظر إلى ما تحمله من خصوصيات تاريخية قد أنشأت سردا مضادا، حين قامت بإنتاج ما يقابل الخطاب الكولونيالي من رؤى ومفاهيم فلم تتطابق معه ولم تسائر أفكاره التي يريد لها أن تتوطن وبذلك تكون قد أنشأت بوعي سردي ما يمكن أن يقلب أو يقطع العلاقة المسوّقة من طرفه القائمة على مفهوم (السيد والعبد)، أو مفهوم (المركز والهامش)، الثنائيتان المؤسستان على أنقاض الاستعمار المباشر، وذلك كلّ بناء على رفض مطلق للخضوع والامتثال والتقليد وهو ما من شأنه أن يؤسّس لعلاقة جديدة قوامها النديّة المعنوية والصراع المتكافئ على المستوى الثقافي. وبالنظر في متون الروايات النماذج نستشف مجموعة من التّظاهرات السردية التي اتخذت هذا المسار المعادي للاستعمار وخطابه، الساعية كل من وجهتها إلى تحييد التاريخ عن قارئه على النّحو الذي أنتجه المستعمر وإعادة إنتاجه من منظور مغاير ينفي ما سوّقه المستعمر ويعزّز من الموقع الحضاري الجزائري بما هو كيان مستقل له كينونته الفاعلة الحرة بخصوصياتها الثقافية، ومن ردّات الفعل هذه نذكر ما يأتي:

- الانتصار إلى الوطن وإعلان الانتماء إليه، كيانا منفصلا له حدوده السياسية وحراكه التاريخي المميّز له وخصوصياته الثقافية التي ينتشي الروائي بولائه إليها، مع الرفض المطلق لكلّ مظاهر الاستلاب في الآخر المؤدّية إلى فقدان الذات لهويتها، وهو ما عبّرت عنه الروايات الجزائرية المخيلة للتاريخ جميعا، بصيغ وآفاق مختلفة، متفقة على أنّ الإنسان دون وطن، هو إنسان دون هوية، دون تدقّق تاريخي عبر الزمن، يقول السارد متمثلا حالة بوزقة في معركته ضدّ الاحتلال الفرنسي: "قبل ليلة صقيعية، متفقدا مراكز الحراسة، تمثل له التاريخ، بين الأغصان المخلفة بنور القمر، مخلوقا هرما مهترئ

الأسمال (أريد وجهي الذي أضعته في هذه الأرض. أبغي لباسا أنبعث به على أبدان الرجال والنساء والأطفال المنتظرين) ثم راح يتوارى عنه في تلاش بطيء. فهتف من خلفه (سنزف لك هذه الأرض لتكون ذاكرتك)⁽²²⁾. وفي هذا السياق أيضا تبرز وطنية سيدي مبارك في رواية الأمير بشكل خارق للعادة عبر رسالة أرسلها إلى الأمير كانت قد وجهت قبله لشنقارنييه، مازالت كتب التاريخ تحفظها موصولة بالدهشة التي أصابت الجنرال "بيجو" حين قراءته هذا الخطاب الذي وطن لبطولة وبسالة سيدي مبارك، حيث كتب: "من جبل الداخلة إلى وادي الفضة يمتد سلطاني، أجاهد وأعفو عند المقدرة مقابل هذا السلطان الذي أمارسه لنصرة دين الله وسيدي السلطان عبد القادر. فماذا تضيف لي عندما أسلم نفسي لك؟ أرضي التي سأسترجعها بالبارود والنار كما سرقت مئي؟ الدراهم ولقب يتبعني إلى القبر بالخيانة؟"⁽²³⁾.

- العودة إلى التاريخ الجزائري المنتصر، تخليدا له، ودحضا للافتراءات الاستعمارية الممجّدة لأفعالها باعتبارها فعلا حضاريا تمدنييا، وتثبيتا لفكرة الاستقلال المنتزع بالقوة من المحتل لا المعطى مثلما يدّعي مؤرخو المستعمر في أكثر من مناسبة، وهو ما يفرد للجزائريين كيانهم الخاص وثقافتهم المغايرة، الراضية للاحتلال قولا وفعلا، ويبين بشكل كاف قوتهم الروحية والمادية التي استطاعوا من خلالها تحقيق النصر والوصول إلى مرحلة أصبحوا فيها "يهتفون (تحيا الجزائر ... الله يرحم الشهداء) تحت سماء من أعلام النجمة واللال وسط بحر من الزغاريد"⁽²⁴⁾. ولذلك نجد أنّ معظم الروايات التي عادت إلى الحقبة الاستعمارية الفرنسية قد ركّزت على ثورة التحرير بما أنّ زمنها هو زمن تحقيق المبتغى (حومة الطليان/ كولونيل الزيرير/ ما لا تذروه الرياح/ غدا يوم جديد). وهو ما نبذه أيضا في رواية "مفلاح" "شعلة المائدة" حين عودته إلى الحرب الثانية مع الإسبان الذين حملوا سفنهم بعدها ولم يعودوا، فكتب الروائي النصر الأخير بإسهاب كبير بعد أن عرّج على النصر الأول الذي سبقه دون التفصيل فيه لما قد لحقه بعد زمن قليل من هزائم جزائرية أعادت وهران إلى الإسبان مرة أخرى، وذلك حين كتب: "كم كانت فرحة سيدي الهاشمي عظيمة لما قيض له الله تعالى أن يشهد تحرير

وهران، ولكنّ تلك الفرحة لم تدم طويلا إذ عاد إليها الإسبان بعدما استقر بها الجزائريون حوالي خمس وعشرون سنة⁽²⁵⁾. والروائيون بهذا الفعل يردّون على المستعمر بمثل ما سوّق به لانتصاراته، وبمثل ما ادّعى من شجاعة وقوة لا تقهر.

- اعتماد الدين الإسلامي مركزا سرديا بما أدّاه من دور في لمّ الشمل وتحديد الوجهة وضبط المسار نحو الاستقلال، وبعده للحفاظ على الهوية مظهرها وجوهرها، فكان أصلا ثابتا باقيا بالرغم من كلّ محاولات طمسه من طرف المستعمر، من خلال اضطهاده للراسخين فيه، "فالعلماء الذين عادوا من الشرق لم تعط لهم فرنسا لا وظائف في المساجد التي لها أوقافها الإسلامية، ولا وظائف كتاب في الإدارة الأهلية، أو لدى القضاة الموثقين. طلبوا الإمامة في المساجد لم يحصلوا عليها. طلبوا مناصب مؤذنين أو حزايبين رفضت مطالبهم"⁽²⁶⁾، وذلك لأنّ مشكلة الغرب، بتدقيق النظر، ليست في الأصولية الإسلامية بقدر ما هي في الإسلام ذاته، بما هو مورد مخيف وعدو مهدّد للمركزية الأوروبية / الغربية، يقول إدوارد سعيد بهذا الصدد: "ولكنّ خوف أوروبا من الإسلام، وإن لم يكن يمثل الاحترام في كلّ حالة، كان له ما يبرّزه. فبعد وفاة محمد صلى الله عليه وسلم في عام 632م ازدادت هيمنة الإسلام العسكرية وازدادت في وقت لاحق هيمنته الثقافية والدينية، زيادة هائلة، فقد فتحت جيوش المسلمين أولا بلاد فارس، وسوريا، ومصر، ثم تركيا ثم شمال إفريقيا، كما فتحت في القرنين الثامن والتاسع إسبانيا وجزيرة صقلية وأجزاء من فرنسا. وما إن حلّ القرنان الثالث عشر والرابع عشر حتى أصبح حكم الإسلام يمتدّ شرقا إلى الهند والهند الصينية والصين، ولم يكن في طوق أوروبا أن تردّ على هذه الهجمة ردّا يذكر، إلا بالخوف ولون من ألوان الرهبة"⁽²⁷⁾، ليس هذا وحسب بل وسنّ التاريخ للغربي اطرادا مخيفا ومرعبا شكّل لأوروبا صدمة نفسية استتبعته حلقاتها نهاية القرن السابع عشر على يد العثمانيين "الذين وقفوا ضدّ الحملات الصليبية ... وقدموا تضحيات في مواجهة الغزاة الصليبيين"⁽²⁸⁾ وهو ما شكّل خطرا دائما "على الحضارة المسيحية بأسرها، وعلى مرّ الزمن تمكنت أوروبا من أن تدرج هذا الخطر ومأثوراته التقليدية، وأحداثه العظمى وشخصياته البارزة ومناقبه ومثاله في صلب حياتها"⁽²⁹⁾ بما هو القلق الدائم الذي

يحتاج إلى تعريف وتحجيم يمكن الغربيين من تخفيف حدة خوفهم منه ومن إمكانية عودته للظهور على سلم التاريخ مرة أخرى.

ومن أبرز الروايات التي عمدت إلى إظهار مكانة الإسلام ودوره التاريخي "كتاب الأمير" و"حومة الطليان" و"الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" و"شعلة المائدة"، يكتب "محمد مفلح" مبرزاً دور شيوخ الزوايا وطلبته الذين وحّدهم الجهاد بعد تحريرهم لمدينة وهران واتجاههم إليها منتصرين: "قضى الباي الليل رفقة العلماء والطلبة الذين تلوا سورا من القرآن الكريم وصحيح البخاري. ولما أطلّت الشمس بأشعتها الدافئة من وراء جبال الشرق، تحركت المواكب إلى وهران وقد تقدمتها بغلة قوية وُضع عليها صندوقان مملوءان بالمصاحف، وبينهما صندوق ثالث كان يحتوي على كتاب صحيح البخاري، وغطّيت الصناديق الثلاثة بقماش حريري طرزت عليه الآيات الكرّمة"⁽³⁰⁾. وعن صورة الإسلام التي تكوّنت لدى الغربيين اليوم بما هو دين إرهاب وذبح على نحو تساق، وتوجهات بعض منهم ممن يكنّ العداء ويذكّي ناره حيشما أتاحت الفرصة، يقول "واسيني" موضّحاً الصورة صارفاً الأذهان إلى غيرها، في ردّ خاطب به القارئ عبر آذان مونسنيور ديوش حين حديثه عن الجهاد: "الجهاد لا أن تحمل سيفاً وتشهره في وجه أوّل من تصادفه، الجهاد أن ترفع سيفاً عندما تنغلق أمامك كلّ سبل السلم. ديننا يقول إذا جنحوا للسلم فاجنح لها"⁽³¹⁾.

- النظر إلى الغرب لا كوحدة متجانسة بل كمتعدّد خاضع لثنائية (الائتلاف والاختلاف)، وهو ما يسقط عنه روايا مفهوم القوة المتكاملة التي لا تقهر، ويعده في الوقت نفسه عن الأحكام التجريمية الكلّية التي تُنتج في المجتمع المتخلف نظرة عداوية مطلقة لكل ما يصدر عنه حتى وإن كان نافعا ولذلك اختار الروائيون التحزّيء والفصل بين الدولتين المحتلتين الفرنسية بالدرجة الأولى والإسبانية بالدرجة الثانية وبين بقية الدول الغربية التي لم يكن لها وقع تاريخي على جغرافية الجزائر، وهو ما من شأنه أن يقزّم الخطاب الغربي الاستعماري ويكسّر مقولاته الكبرى الاستعمارية لتفتّت وفقا لخصوصيات وطنية وأخرى عرقية.

• المحاولة الدؤوبة لكسر خطية الكتابات المؤيدة للتواجد الاستعماري، والخطابات السياسية المهادنة لادعاءاته، وإعادة ملء الفراغات الناشئة بكتابة تاريخ الجزائر قبل القرن التاسع عشر لربط حلقات الماضي بعضها ببعض لصالح الوطنية والقومية ولصالح الجامع الديني الإسلامي على نحو يغير ويصادي ما ذهبت إليه الخطابات الاستعمارية المهادفة إلى تهدم اللحمة الجزائرية المتعددة ثقافتها وأعراقها والتي لطالما سعت إلى إشاعة تاريخ مغاير يركز على حقتين مشعتين - بحسبها - هما الحقبة الرومانية، وما كان لها من فضل على البربر، وبعدها الحقبة الفرنسية ودورها كخليفة في إشاعة أنوار النهضة الأوروبية في المنطقة، لتقدمهما كمشعل حضاري وكمشكاة تقدمية كافية للتغيير والبناء قديما وحديثا؛ إذ تدعي هذه الكتابات على النحو الذي وصّفته رواية "بن هدوقة" بأنّ في كلّ شبر من أرض الجزائر "دم فرنسي من رواد الحضارة الأوائل، وفي كلّ رقعة منها آثار لفؤوس أولئك الرجال الذين استصلحوها بعدما كانت بورا ومستنقعات ... هذه الأرض اللاتينية ... (تبسة) و(تيمقاد) و(جميلة) و(شرشال) و(تيازة) وغيرها من مئات المدن القائمة آثارها إلى اليوم"⁽³²⁾، وهو ما أراد المستعمر من توطينه وترسيخه تاريخيا تهميش التاريخ الإسلامي باعتباره غزوا عربيا همجيا قاد المشاركة إلى دول المغرب، تأسيسا لبؤرة جديدة للصراع بين الشرق والغرب، وبين المسيحية والإسلام، وبين العربية واللاتينية، وذلك على اعتبار العرب والمسلمين الفاتحين مجرد "رعاة إبل لا بناء حضارة مثل اللاتينيين"⁽³³⁾.

لقد كانت لهذه الأصوات العنصرية في الحقبة الاستعمارية صداها القوي في زعزعة الجسد الجزائري وخلخلة أعضائه بشاكلة رفضتها كلّ الرؤى الروائية على اختلاف انتماءاتها ومشاربها. كتب "ابن هدوقة" صابا الصّورة العنصرية الكلية في قالب مدرسي جزائري فرّق فيه المدرّس والمدير بين تلاميذ القبائل وتلاميذ العرب باتخاذهم صفوفًا مختلفة بعد أن كانوا مختلطين لا يفرّقهم شيء، وقد برّر المدير ذلك بقوله: "إنّ الأطفال يجب أن يعرفوا منذ الصغر أصولهم، لأنّ ذلك من عناصر تأصيل الشخصية"⁽³⁴⁾ وهو ما رفضه الآباء، وسكتوا عنه على مضض لأنّ المعلم والمدير (فرنسيان). لقد

تكرّرت هذه الدلالات في أكثر من موضع، وبطرائق مختلفة دعت من خلالها الروايات الجزائرية إلى الاعتبار برجالات الأمس الذين كافحوا هذه المظاهر، داعية إلى مجانبتها، مخذرة من الوقوع في حبالها أو تحقيق أيّ هدف من أهدافها مهما كان حجمه، وهو ما يعكس وعيها بما كان منتجا استعماريا، وما هو كائن من صدى له في جزائر اليوم، وما قد ينتج عنه إن تحققت أهدافه من تشتت وانقسام.

- إبراز دور المثقّف تاريخيا بمنحه أدوارا رئيسية قيادية لها مركزيتها الروائية، وبالمقابل صرف الوظائف السردية السلبية للدهماء، كشفا لنسبة الوعي السائدة، وانتصارا للنديّة الفكرية، فالمثقّف الجزائري هو الذي قاد المقاومات الشعبية والثورة التحريرية، وكانت له وظائف ريادية في عملية التحرير، سواء من الناحية العسكرية أو السياسية أو التربوية الإرشادية، وهذا ما نلمسه في شخصية الأمير وحاشيته في رواية "واسيني الأعرج" وشيوخ الزوايا وطلبتها في "شعلة المائدة" وبوجمة ورفاقه من طالبي العلم في رواية "حومة الطليان" وشخصية الحبيب ومن رافقه إلى الرّيتونة في رواية "غدا يوم جديد" وغيرهم من الشّخصيات الوطنية التي طاردتهم فرنسا وطاردت ثقافتهم المثالة من داخل الزوايا والكتاتيب أو حتى من مدارسها الخاصة.

- انصراف الروائي إلى الاهتمام باليومي والحلّي والخاص، بدل المشترك العام أو الإنساني أفراد للجزائري/ العربي/ المسلم الذي لطالما أراد المحتل إدماجه، دحضا لأيّ تمّاه في الآخر، فكانت بذلك العودة إلى الذات بخصوصياتها الثقافية، في كلّ الروايات وفي كلّ صفحاتها، لخلق التميّز الإبداعي الذي يستحق الاحترام، واستنطاق الهوية الثقافية في بعدها التاريخي، وإعادة كتابتها سرديا بما يضع حدودا واضحة وفاصلة بين "الأنا" و"الآخر" نфия وتعليقا لأيّ حكم يدّعي الدّوبان في منظومة وقيم المستعمر المباشر أو غير المباشر؛ لتنتفي معها ثقافة المطابقة وتحيا بديلا ثقافة الاختلاف وذلك انطلاقا من الملبس والمأكل وصولا إلى الدين والهوية في أعلى هرم المغايرة، إذ "هناك عادات وتقاليد وثقافات وخصوصيات"⁽³⁵⁾ يعلّق معها وينتفي كلّ ما يدّعي الغربي ويحاول التّسويق له من هيمنة تاريخية وسلطة زمنية "حين اتخذ حضارته مركزا ثابتا يدور حوله التّاريخ

فقسّمه إلى قديم ووسيط وحديث، وذلك وهم كاذب أو غرور زائف دفعه -مثلا- إلى أن يضغط تاريخا كتاريخ مصر الذي امتد إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة في عدة صفحات بينما انتفخ تاريخ كتاريخ نابليون الذي لم يمتد لأكثر من عشر سنوات ليشمل مجلدات"⁽³⁶⁾، وهذا مدعاة للقول إنّه إن لم يكن من حقّ المؤرخ والروائي الجزائري أو العربي تجاهل المنجز الأوربي التنويري التّهضوي والمحقّق الصّناعي والتكنولوجي فليس - بالمقابل - من حقّ الروائي والمؤرّخ الغربي تجاهل تاريخ الجزائر والدول العربية والإسلامية وهوياتهم المختلفة واعتبار نفسه مركزا حضاريا، وقد سبقته هذه الدول إلى الحضارة والمعرفة.

- إعادة تمثّل صورة الغربي المستعمر وإظهارها على حقيقتها بعد عمليّات الإخفاء والتزيين التي قام بها نتيجة غياب وسائل الإعلام أثناء ارتكابه للجرائم والانتهاكات والاعتقالات العشوائية، وهو ما جعل الرّواية الجزائرية تستعيد بصورة المضطهد والمغتصب، بخاصة ما تعلّق منه بالقطاعين العسكري والسياسي، تجرّما له عمّا فعله ونزعا منه للصفات الإنسانية التي يدّعيها زورا، يقول السارد في رواية حومة الطّليان: "لم يتردّد الفرنسيون الذين قاموا يوم 10 أفريل 1838 بتكليف السفاح le Général négrier بالبحث عن منفذ نحو البحر يتوسط الساحل بين مدينتي عنابة وجيجل ... لم يجد الجنرال أحسن من موقع روسيكادا الاستراتيجي، فحطّ رحاله وبدأ تطهير المنطقة من سكانها الأصليين، كما باشر جنوده الذين لم يشدوا عن اتباع طريقة أسلافهم الغزاة الرومان والوندال تدمير تلك المباني العظيمة، فحطّموا في البداية كنيسة القديس فيريولوس، ثم كنيسة فيكتور ثم كنيسة نافيغيوس وفاوسيتينيانوس، تلك الكنائس التي لم يدمرها الفاتحون المسلمون باعتبارها بيوت الله ... حاولوا تصليح ما أفسدوا بطريقة عشوائية، ثم قاموا بتدمير بقية المباني لفتح الطرقات"⁽³⁷⁾، ويقول في موضع آخر متمثلا جرائم المستوطنين بدعم من المظليين الفرنسيين ضدّ السكان العزل لإعلان بعضهم الانضمام لجبهة التحرير الوطني والانتصار لقضيّتها: "قاموا بحملة شعواء، وعمليات نكراء يندى لها جبين الإنسانية، تحت شعار Les Ratonnades

حيث يتمّ اصطياد العرب مثلما تصطاد الجرذان، وهكذا راحوا يفتكون بجيرانهم العرب بشكل عشوائي. ويقتلونهم على أساس الهوية والأوصاف والسّمرة، فكانت أشلاء القتلى منتشرة في الشوارع بدون شهود ولا متفرجين، بل واستغلّ المظليون الوضع للقيام بمهامهم الدينية، حيث وبحجة جمع الجثث بغاية دفنها راحوا يجمعون الموقوفين ... ويحشرونهم مع جثث القتلى في صندوق عربات شحن ... التي تنسل إلى داخل الملعب البلدي حيث حفرت خنادق عميقة بالجرّافة ... مهياةً لابتلاع أكبر عدد من الجثث أو الجرحى أو الأصحاء ... وحرصا على ضرورة حصر المعلومات لدى عساكر ثقة ... والمؤهلين للإعدام إذا ما أفشوا الأسرار ... لذلك فكنتم الأسرار ... قضية حياة أو موت" (38).

يلاحظ بأنّ الخطاب الروائي الجزائري يميل إلى تقديم صور سلبية عن الغرب أكثر بكثير من تقديم صور إيجابية له، ويعود ذلك لعدة أسباب أهمها الاحتلال المباشر الذي عرفه ولم ينفك منه إلا بخسائر كبيرة مسّت الجانبين المادي والمعنوي وإلى الأفعال التي أقدم عليها في العقدين الأخيرين في الشرق الأوسط وإعلانه بشكل صريح لأطماعه في ثرواته، إضافة إلى تجلّي الخطاب الاستعلائي عبر وسائل الإعلام التي لم تكن متاحة من قبل بالشكل الذي نعرفه اليوم. هذه الأسباب وغيرها جعلت النصّ الروائي ينصرف إلى تكريس طاقاته الإبداعية في إظهار وحشية الآخر وأطماعه وغروره وكذبه وافتراءاته وغيرها من الصور السلبية التي يمكن اعتبارها الردّ والعزاء في الوقت نفسه.

- عمد الروائي الجزائري إلى إنصاف التاريخ بإبراز شخصيات غربية في صور مسالمة وإنسانية، وهو ما يقرب القارئ من الحقائق التاريخية التي تتعارض مع ما قام به المستعمر حين صوّر كلّ المنتمين إلى جبهة التحرير الوطني أو كلّ الفصائل والمقاومات المدافعة عن حقّها ضدّه في شكل وحوش وقطّاع طرق، وصوّر الشعب الجزائري من موضع استعلائي - دون أي استثناء - على أنّه شعب غير متحضر متخلف، يحتاج من يوجهه، وهو ما ينتفي مع المنطق وقيّده لصالح التاريخ الجزائري ومتخيّله في

الروايات الجزائرية التي عرفت كيف تنفي التهم وتدفع الادعاءات، وفي الوقت نفسه كيف تفرّق بين المقاتل والمستوطن، بين صاحب الإرادة في الاحتلال وبين المجبر على البقاء في أرض ولد فيها دون إرادته، بين من انتصر لوطنه الأم (فرنسا) وبين من انتصر للحق والعدالة، والأمثلة على ذلك في الروايات كثيرة، وقد يكفي التدليل بما أوردته رواية "البوح" حين تعاطف الراوي مع المدرسة الفرنسية التي أقرّت أحقية الجزائريين في أرضهم قبل أن تغادر التراب الذي ولدت عليه حين قالت لمنصور بعد أن رفض الرحيل معها إلى فرنسا "أنا لا أحترم من لا يحب بلده"⁽³⁹⁾، وبما خلّده راوي "الغيث" من فعل المعمر "فرانسوا كارطيلو" الذي "ساند مشروع الاستقلال بلا قيد ولا شرط وساعد المجاهدين بالمال وإخفاء الأسلحة والجرحى أثناء الحرب"⁽⁴⁰⁾ في إشارة واضحة إلى كلّ من ساعدوا الثورة وساندوا أهلها وتمنوا لهم الانتصار لعدالة قضيتهم.

- لم يكتفِ الرّوائي بتصحيح مسار التاريخ من وجهة نظر جزائرية بل لجأ - باستخدام تقنيات سردية - إلى الانتقام من المستعمر، بعدما أحسّه من قهر ثقافي آني وآخر تاريخي استعماري، فقام في أكثر من رواية بربط علاقات عاطفية وأخرى جنسية بين الرّجل الجزائري والمرأة الفرنسية إلى جانب توظيفه لبعض العلاقات المشابهة من جانب معكوس، تأتت قهرا وغصبا مثلما هو مجسد في رواية "غدا يوم جديد" لابن هدوقة من خلال شخصية مسعودة مع الشبان الأمريكيّين⁽⁴¹⁾ وشخصية نائلة المغتصبة من طرف جندي فرنسي في رواية "الغيث" لمحمد ساري⁽⁴²⁾، وشخصية لويّزة في "كولونيل الزيرير"⁽⁴³⁾.

قد لجأ الرّوائي إلى توظيف ذكورة الجزائري تحريرا له من الخضاء الفكري الذي يستشعره حين تأمله لطبيعة علاقته بالآخر/القوي، وإثباتا للأنا/الضعيف الذي يبتغي الرد على الفعل بفعل من جنسه على حدّ تفسير "جورج طرابيشي" الذي يقول بهذا الصدد: "من المؤكد أنّ جدل القهر الكولونيالي والاعتصاب الجنسي قد جعل الكثيرين من أبناء المستعمرات المقهورين والمخصيين نفسيا يهتفون بينهم وبين أنفسهم عند مرآهم لامرأة بيضاء نقية البشرة: هذه امرأة إذا ركبها فقد ركبت أمة

بكاملها"⁽⁴⁴⁾. وبهذا يكون موضوع الجنس على هذا النحو المقدّم موضوعا غير مدرك على نحو فطري يبتغي به أصحابه إشباع شهوة جنسية وكفى، بل يُنظر إليه بصفته تجليا فكريا لنزعة انتقامية، ووضعية ثقافية تقلب الهامش مركزا والمركز هامشا وفقا للمنظور العربي الذي يعتبر "الأثنى مجرّد صدى لصوت الذكر، ومحيطا يؤثّر فعالية البؤرة الطاغية لنشاط الرجل وهيمنته. والنتيجة أنّ نسق التفاعل يغدو ذو طبيعة أفقية تمضي في اتجاه واحد، وتتغني عن صورها إمكانات الجدل المولّد للفعالية المتبادلة بين الطرفين"⁽⁴⁵⁾ فلا تزيد المرأة بوجودها الجنسي إلى الرجل إلا مزيدا من الرجولة في حين تغيب هي في تلك اللحظات تحت سطوته باتجاه الهامش، نحو الوضاعة والاستسلام وهو ما يجد فيه العربي/الجزائري عزاءه إزاء الحاصل له في الواقع حين النظر إلى العلاقة بعيدا عن ثقافة الفراش فيكون بذلك ردّه واضحا وصارخا على الخطاب الكولونيالي.

لم تختلف النظرة الكولونيالية إلى الأمم المقهورة وأراضيها عن نظرة الجزائريين إلى المرأة الأوروبية فحين تحركت مواكب المستعمرات نحو الأراضي الجنوبية حملت معها رايات الاغتصاب وأعلت منطق اللذة؛ إذ "ليس من قبيل الصدفة أن يكون نعت (البكر) و(العذراء) قد أطلق على قارات ومناطق وغابات بكاملها. وليس من قبيل الصدفة أيضا أن يكون مالك العبيد والمستكشف والفتاح والمستعمر والمستوطن قد سمي بـ (الرجل) الأبيض. فعلاقة المستكشف بالمجاهل والأراضي البكر، كعلاقة المستعمر بالمستعمر، هي – أو يفترض فيها أن تكون – علاقة رجل بامرأة"⁽⁴⁶⁾ تمثيلا لصورة الاغتصاب الاستعماري القابعة في أذهان الغرب الدّاعية إلى الاغتصاب العسكري لهذه المناطق العذراء التي لم يستطع أهلها افتراءها قصورا منهم وجهلا بشروط الرجولة.

ومن الأمثلة التي ردّ فيها العربي/الجزائري على الآخر إثباتا لوجوده ولاستمراريتها في الروايات التّماذج ما ورد في رواية "بوح الرجل القادم من الظلام" لإبراهيم سعدي من خلال العلاقة التي ربطها المؤلف بين الحاج نعمان منصور والمستوطنة الفرنسية "كلير ردمان"، والتي كانت في الأصل مدرسته للغة الفرنسية، فاستولى الجزائري على فراشها لمدة طويلة من الزمن قبل الاستقلال ليعتلي جيروت فرنسا وتنكيلهم به

وبأهله، وعلى منزلها بعد ذلك، وهو ما رآه حقا طبيعيا، وكلّ ذلك ليبرز قوته وليثبت مركزته، يقول: "بعد لحظات صرت منطرحا فوقها بلا أقل حرج، على أرضية القاعة إلى أن سمعتها تهمس بذلك الصوت الذي كان فيه كلّ شيء، السعادة واللذة واليأس والشقاء"⁽⁴⁷⁾، وهو الصوت الذي يرضي جزائريته، ويستعيد به رجولته المسلوقة. ويقول في موضع آخر بعد رحيل المعلمة "كلير ردمان": "أدركت كامل الإدراك أي وحدي في (فيلا روز) ... وعيت كامل الوعي بأن مفاتيحها في يدي"⁽⁴⁸⁾.

وفي هذا المساق يتبدّى لنا أيضا شخص البشير في رواية "ما لا تذروه الرياح"، والذي انتقل إلى فرنسا وانتقم لرجولته التي ضاعت معالمها أمام قوّة وجبروت المستعمر، وأمام صبر ومقاومة المجاهدين على أرض وطنه، فاستعاد جزءا منها في اعتقاله لجسد فرانسواز بفرنسا بتمثّلات سردية يستعيد معها القارئ صورة "مصطفى سعيد" في رواية الطيّب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال" بالرغم من الفارق الواضح في الأسلوب والصوغ الفكري، ومن ضمن ما يثبت هذا الفهم ويحاجج له رفض البشير بعد الاستقلال "رفضاً تاماً، وبسرعة، عرض فرانسواز الزواج عليه، وطلبه منها أن تعدّ له الأوراق الضرورية للسفر. وليس معنى إعداد الأوراق ها هنا سوى اعتراف فرنسا بالشخصية الجزائرية. وقد وقع هذا الاعتراف بالفعل في محادثات الاستقلال بإفيان، فانفصال البشير عن فرانسواز مرادف تماما لانفصال الجزائر نهائيا عن فرنسا"⁽⁴⁹⁾، ومنه اعتقاد بشير باستعادة الجزائري لرجولته بعد استرداده لوطنه وهويته، ولذلك توصّل البشير في أوّل لقاء له بها بعد الاستقلال إلى "أنّه لم يكتشف إلى غاية ذلك اللقاء فرانسواز، فرانسواز الحقيقية، كان يعرف امرأة أخرى"⁽⁵⁰⁾ يستلذ بقاءها معه لقضاء وطره منها تعويضا لذكورته المفقودة، وإثباتا لها ولكلّ من تمثّلهم "بعيونها الزرقاء وبشرتها البيضاء وقدها ولغتها المفعمة بالحنان"⁽⁵¹⁾ أنّه ذكر كامل الرجولة، قادر على فعل ما فعله الفرنسيون من بني جلدتها وأكثر، وهو ما يلحظه المتتبع بشكل جلي في إجابته المكرورة كلّما سألته فرانسواز عن حاله فيقول: "ولماذا لا أكون بخير؟ إنّّه باستطاعتي أن أكون حسبما أريد. فأنا لا أطلب من أيّ أحد العون والشفقة ... خاصة منك يا فرانسواز. إني دائما أقوى وأعظم منك"⁽⁵²⁾.

إن لجوء الروايات الجزائرية إلى إقامة هذه العلاقات الجنسية ينبع عن فعل المثاقفة الذي يقوم به مؤلفوها مع ما تنتجه المستعمرة من أفكار ذكورية، تشعرهم بالدونية الأنثوية، فيجد الروائي في تاريخه المنتصر الملجأ باعتباره صدمة للكونولونية، وفي تخيله للعلاقات العربية الذكورية والغربية الأنثوية نافذة يرد من خلالها "إلى مثقف المستعمرة أو المستعمرة السابقة اعتباره كرجل في نظر نفسه، فإنّ ما هو بمسيس الحاجة إليه هو أن يستعيد رجولته في نظر الطرف الفاعل في عملية المثاقفة بوصفها علاقة تحدّ وسيطرة وعنف وحتى اغتصاب"⁽⁵³⁾، يراها الروائي من زاويته ويختار لها السياق النصي المناسب للتعبير عنها، وللتعبير عن العربي/الجزائري الذي "لا يكره الغرب بل يكره تخلفه الذي تبدّى نتيجة إظهار الغرب لقوته فشكّكه في رجولته ومنه في وجوده فالغرب ليس قضية سياسية فحسب إنّما هو خاصة تأكيد لتأخر العرب، وهو الترجمة الحسائية لما يفصلهم عن التاريخ الراهن من مسافات شاسعة رغم وجودهم الشكلي فيه"⁽⁵⁴⁾.

- حاول الروائيون الجزائريون أثناء إعادة إنتاجهم للتاريخي التركيز على الكثير من القضايا الاجتماعية والثقافية السلبية التي كان للمستعمر يد في ظهورها لتبيان مدى خطورة سيورتها حتى زمن الكتابة ومن ذلك مثلا إشارتهم إلى عدم تحرير العقول من بقايا الاحتلال بعد تحرير الأبدان، وإلى تحرير المرأة وفقا للسياق الغربي الذي لطالما ادّعى أصحابه في خطابهم الاستعماري أنهم منقذو المرأة وحافظو حقوقها في إطار يتنافى كلياً والقيم الجزائرية المستمدة من شرائع الدين الإسلامي، المصدر الأول للهوية، وإلى جانب ذلك أيضا، دعا الروائيون إلى تجنب كل مظاهر الاتباع والاقتداء بالغربي خاصة في المدن الجزائرية بما هي الحواضر الأكثر تأثرا به، والأكثر استلابا فيه، وطلبا لتفاصيل حياته بالرغم من كل أفعاله الاستعمارية القديمة، والأكثر استنباتا لأفكاره ورؤاه الاستعمارية الجديدة، يقول "محمد ساري" بهذا الصدد: "منذ قرون وأهل (الجبال) يعيشون مغلقين بداخل تالهم المنسيّة، برفقة أعيارهم وآناهم وأمعزهم، ورعهم الدفين من غزو جنود الشمال لجباهم ... كانت كهوف الجبال خير مخايئ لهم، ضدّ كلّ الغزوات ... ولكن، منذ أن أضحت السماء تمطر قنابل وطائرات، ثم ذبذبات مصوّرة مراقبة، لم يبق لهم إلا مغادرة عرائنهم للاستقرار في السهوب والسهول. انحدر البعض

متدحرجا دون حسرة ولا تردّد، تشبّث البعض الآخر بالتلال ... في المقابل، تدقّقت ذريتهم بالعناقد نحو الشيطان السّاحرة لانتظار السفن التي ستحملهم نحو بلاد سيرسي وعرائسها الغناء⁽⁵⁵⁾، إنّه فعل "العدد اللّامتناهي من الصّحون المغروسة في الشّرفات وعلى السقوف"⁽⁵⁶⁾ التي امتد غزوها الثقافي في فراغنا.

- مجابهة سياسة التجهيل الفرنسية وإحاقها صفة الأمية بالشعب الجزائري باسترجاع ما أدّته منابر العلم من دور قبل الاحتلال وبعده، من خلال الزوايا، والكتاتيب والمؤسّسات الثقافيّة الدّينية وعلى رأسها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كان لها دور كبير في توجيه الشعب وإرشاده ونشر الوعي بين فئاته وشرائحه المختلفة، ما قاد إلى استنهاض الهمم والدفاع عن الوطن مثلما تمّ الإشارة إلى ذلك آنفا.

- رفض البقاء في حالة تبعية عسكرية أو ثقافية بعد الاستقلال على النحو الذي أبداه ويديده الواقع الأمر الذي مثلت له رواية السائح "كولونيل الزبربر" حين عرضها للامتيازات التي استبقتها فرنسا لنفسها بعد الاستقلال بسنوات⁽⁵⁷⁾، ناهيك عن إعلانها في اتفاقيات إيفيان عن نفسها وصية على التّربية والتعليم الجزائري، ووصية على الجانب الاقتصادي لكن بصيغة المستشار أو المتعاون، وهو ما تمّ رفضه من طرف الوطنيين، على النحو الذي تجسده الرواية، ف"لئن تكن البلاد العربية قد تحررت سياسيا فلا تزال للاستعمار خططه وأطماعه وأساليبه المتعددة الوجوه والأشكال والمصادر"⁽⁵⁸⁾.

على سبيل الختام:

بعد عملية التمثيل هذه التي كشفت بعض الصور السردية المضادة للخطاب الاستعماري أمكن القول بأنّ مجموع ما أنتج من نصوص مخيّلة للتاريخ الجزائري هي في الأصل تسعى إلى تبني ثقافة الاختلاف التي تقتضيها الآداب ما بعد الكولونيالية، ولا تسعى من خلال ذلك إلى التوقع حول ذاتها أو رسم حدود لها بمعزل عن الآخر، بل تسعى إلى اختراق كلّ المجالات التي افترعها الخطاب الاستعماري وسوّق عبرها لادعاءاته متجهة صوب الإنسانية، صوب الحقيقة، وصوب توطين الغيرية بما هي اشتراك في الاختلاف وتعايش في ظلّ التنوع، وبذلك فهي تؤمن بأنّ الآخر مثل الأنا، منتج للثقافة مساهم في البناء الحضاري، وأنّه يدرك اختلافه عن الأنا، وأنّ لنا أهدافا طبيعية مشتركة، وفي

الوقت نفسه اختلافات نابعة من قلب التاريخ. إنّ هذه الرؤية هي ما جعلت الرواية ما بعد الكولونيالية في تعاملها مع الذاكرة وثقوبها تستهدف خطاب الاستعمار قصد تفكيكه وإعادة تركيبه من جديد وفق حقيقة مدعيه الذين كرسوا إلى جانب زعم المركزية عنفهم وعنصريتهم بتجلياتها الثقافية التي دعمتها الإمبريالية وسوغت بها لنفسها وجودا جديدا وقويا، وذلك لإنتاج خطاب متعال مثلي أو لخلق النّدية الفكرية والثقافية والحضارية عبر الخطابات المنتجة.

لقد حاول الخطاب الكولونيالي الانشغال داخل الخطابات القومية والوطنية والدينية بغية تمزيقها من الداخل، لأنّها خطابات مناوئة للاستعمار بكلّ تجلياته المباشرة وغير المباشرة وهو ما استدعى في الضفة الأخرى إنتاج وعي اجتماعي جماعي يفتق من صلب الشّارع للذود عن خطابات الذات وهو ما صاحبه الروايات المتأمله في تاريخ الجزائريين تحت لواء زمني ما بعد كولونيالي، انبثق عنه سرد تاريخي مضاد، عطّل فكرة مركزية السرد التاريخي والنظرة الأحادية إليه التي سوقها المحتل، والتي لطالما أرادها/يريدها أن تحافظ على وحدانيتها بعيدا عما تبغيه الروايات من إلغاء لفكرة الشاهد الواحد على ما حدث، وهذا ما يعني أن "خروج بلدان من مرحلة الاستعمار إلى مرحلة ما بعد الاستعمار لم يكن ليغني نهاية هيمنته عليها، كما لم يكن لينسي أهالي تلك البلدان ذلك الاستعمار، خصوصا أن بعضهم بقي تحت هيمنته، ولكن بأشكال أخرى"⁽⁵⁹⁾ لها آثارها الوخيمة على ثقافات الشعوب وعلى قيمها وعلى تاريخها التي يرفضها المستعمر ويسعى إلى توطيئها المستعمر بشقّي السبل.

إنّ هذا الصّدام الروائي مع الآخر ما هو في الأصل إلا نوع من أنواع الحوار، وبالرغم من ثنائية (التقدم والتخلف) التي يجليها الواقع حين عملية المقايسة بين (الغرب والشرق) إلّا أنّ هذا الحوار يوجب "أن يكون هناك حق متساو لكلّ من الطرفين المتحاورين، وتحديدًا في أن تكون له فرص التعبير عن نفسه وآرائه وثقافته ورؤاه ... وإلى غير ذلك مما تفرضه الخلفيات والثقافات والطبائع المختلفة"⁽⁶⁰⁾، وعليه لا يجوز أبدا إطلاق حكم تجريبي ضدّ منتجي الخطاب الكولونيالي والاكتفاء بعدها بالدلال التاريخي الذي ينتظر الإنصاف من الآخر، وذلك لكونه خطابا يعكس ثقافة غريبة متوارثة بكلّ ما يحتويه من مغالطات، لأنّه من جهة، نتاج طبيعي لمن يسعى إلى مركزة نفسه داخل دائرة الحضارة والتقدم التي ملؤها

العاطفة والذاتية والنزعات الإنسية وهو ما لا يتأتى إلا بدفع الآخرين في الوقت نفسه إلى خارج حدود هذه الدائرة، ومن جهة أخرى، لأن الصورة قد تتماثل (لو) كانت الثنائية مقلوبة؛ أي (لو) كان الشرق هو المتقدم والغرب هو المتخلف، وعليه وجبت المقاومة الثقافية وفقا للسياقات التي وعتها الرواية الجزائرية وذلك بتوسل الذات ندا للآخر بعد استحقاق هوية غير مستلبة، تستحق أن يطلق عليها لفظ الأنا مقابل الآخر، الذي يكون مجبرا ساعتها أن يأخذ الثنائية على المنحى الموصوف بكلّ جدية.

الهوامش والإحالات

- (1) - عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة - تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت - لبنان، ط1، 2013. ص: 07.
- (2) - إدوارد سعيد، الاستشراق - المفاهيم الغربية للشرق، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة مصر، ط1، 2006. ص: 51.
- (3) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 52.
- (4) - ينظر: عبد الصمد زايد، مفهوم الزمن ودلالته في الرواية العربية المعاصرة، الدار العربية للكتاب تونس، ط1، 1988 ص: 62.
- (5) - محمد العالي عرعار، ما لا تذروه الرياح، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1982، ص189
- (6) - علي شريعتي، العودة إلى الذات، تر: إبراهيم الدسوقي شتا، دار الأمير، بيروت - لبنان، ط1 2006. ص: 144.
- (7) - محمد ساري، الغيث. منشورات البرزخ، البليدة - الجزائر، ط1، 2007. ص: 174.
- (8) - نجم عبد الله كاظم، نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت - لبنان، ط1، 2013. ص: 35.
- (9) - أحمد حمدي، حومة الطليان، دار هومة، الجزائر، ط1، 2010. ص: 177.
- (10) - الحبيب السائح، كولونيل الزبربر، دار الساقى، بيروت - لبنان، ط1، 2015. ص: 68.
- (11) - المصدر نفسه والصفحة.
- (12) - المصدر نفسه والصفحة.
- (13) - محمد العالي عرعار، ما لا تذروه الرياح. ص: 208.
- (14) - محمد بوعزة، سرديات ثقافية - من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف، منشورات الاختلاف الجزائر، ط1، 2014. ص: 16.

- (15) – "المرويات الكبرى أو المرويات الشارحة كما تسمى أحيانا، مرويات من الدرجة الثانية تريد أن تصوغ سرديا، وتضيف مشروعية على بعض ممارسات أو مرويات الدرجة الأولى الملموسة"، مكوّنة منها خطابها الجامع ليترسخ بعدها في المختلة الجماعية على شكل صورة أو مجموعة من الصور ذات المبدأ الواحد والغاية الواحدة إزاء الأنا أو إزاء الآخر.
- للمزيد ينظر: ج.م. بيرنشتاين، المرويات الكبرى، تر: سعيد الغانمي، ضمن كتاب: الوجود والزمان والسرد – فلسفة بول ريكور، المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان، ط1، 1999. ص: 131.
- (16) – الحبيب السائح، كولونيل الزبرير. ص: 68.
- (17) – واسيني الأعرج، كتاب الأمير – مسالك أبواب الحديد، دار الآداب، بيروت – لبنان، ط3، 2013. ص: 42.
- (18) – الحبيب السائح، كولونيل الزبرير. ص: 68.
- (19) – المصدر نفسه. ص: 143.
- (20) – نجم عبدالله كاظم، نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة. ص: 36.
- (21) – محمد ساري، الغيث. ص: 151.
- (22) – الحبيب السائح، كولونيل الزبرير. ص: 61.
- (23) – واسيني الأعرج، كتاب الأمير. ص: 313.
- (24) – الحبيب السائح، كولونيل الزبرير. ص: 176.
- (25) – محمد مفلح، شعلة المائدة، دار طليطلة، الجزائر، ط1، 2010. ص: 07.
- (26) – عبد الحميد بن هدوقة، غدا يوم جديد، منشورات الأندلس، الجزائر، ط1، 1992. ص: 202.
- (27) – إدوارد سعيد، الاستشراق. صص: 124/123.
- (28) – محمد مفلح، شعلة المائدة. ص: 42.
- (29) – إدوارد سعيد، الاستشراق. ص: 124.
- (30) – محمد مفلح، شعلة المائدة. ص: 120.
- (31) – واسيني الأعرج، كتاب الأمير. ص: 244.
- (32) – عبد الحميد بن هدوقة، غدا يوم جديد. صص: 287/285.
- (33) – المصدر نفسه. ص: 285.
- (34) – المصدر نفسه. ص: 240.
- (35) – واسيني الأعرج، كتاب الأمير. ص: 500.
- (36) – أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، دار الوفاء، الإسكندرية – مصر، ط1، 2004. ص: 247.
- (37) – أحمد حمدي، حومة الطليان. ص: 13.

- (38) – المصدر نفسه. صص: 44/43.
- (39) – إبراهيم سعدي، بوح الرجل القادم من الظلام، دار هومة، الجزائر، ط1، 2000. ص: 61.
- (40) – محمد ساري، الغيث. ص: 242.
- (41) – ينظر: عبد الحميد بن هدوقة، غدا يوم جديد. ص: 12 وما بعدها.
- (42) – ينظر: محمد ساري، الغيث. ص: 69 وما بعدها.
- (43) – ينظر: الحبيب السائح، كولونيل الزبربر. ص: 118.
- (44) – جورج طرايشي، شرق وغرب ... رجولة وأنوثة – دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية، دار الطليعة، بيروت – لبنان ط4، 1997. صص: 10/09.
- (45) – شرف الدين ماجدولين، الفتنة والآخر – أنساق الغيرية في السرد العربي، منشورات الاختلاف الجزائر، ط1، 2012. ص: 52.
- (46) – جورج طرايشي، شرق وغرب ... رجولة وأنوثة. ص: 9.
- (47) – إبراهيم سعدي، بوح الرجل القادم من الظلام. ص: 62.
- (48) – المصدر نفسه. ص: 70.
- (49) – محمد مصايف، الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر ط1، 1983. ص: 297.
- (50) – محمد العالي عرعار، ما لا تذروه الرياح. ص: 193.
- (51) – ينظر: المصدر نفسه. ص: 108.
- (52) – المصدر نفسه. ص: 201.
- (53) – جورج طرايشي، شرق وغرب ... ذكورة وأنوثة. ص: 11.
- (54) – ينظر: عبد الصمد زايد، مفهوم الزمن ودلالته. صص: 61/60.
- (55) – محمد ساري، الغيث. ص: 06.
- (56) – المصدر نفسه. ص: 07.
- (57) – ينظر: الحبيب السائح، كولونيل الزبربر. ص: 173 وما بعدها.
- (58) – قسطنطين زريق، نحن والتاريخ – مطالب وتساؤلات في صناعة التأريخ وصنع التاريخ، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط6، 1985. ص: 202.
- (59) – نجم عبد الله كاظم، نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة. ص: 111.
- (60) – المرجع نفسه. ص: 61.